د/ إبراهيم أبراش

**كلمة في حق رجل آن له أن يستريح**

يبدو انه كتب على الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات أن يتحمل مسؤولية هي اكبر من قدرة إنسان على تحملها ،مسؤولية تأزم قضية وانهيار مرحلة لم يكن هو الفاعل الوحيد فيها، بل كان فاعلا ضمن عدد كبير من الفاعلين ولكن في الوقت الذي وجد فيه الآخرون أوطانا يهربون إليها وشعارات جديدة يخفون بها عوراتهم أو يمارسون بها هواياتهم الكلامية والنضالية ، لم يجد أبو عمار إلا فلسطين يهرب إليها وشعبه يشاطره الهموم ويقاسمه المعاناة وأرضها ليدفن فيها.
عمره من عمر القضية ، ارتبط اسمه بانتصاراتها وانتكاساتها ،
تألق عندما تألقت القضية وصُدم وانكمش عندما تراجعت القضية ،
هجر الدنيا وملذاتها من اجل فلسطين حتى خلناه ناسكا مترهبا ،
لم يعرف عنه حب مال أو ترف أو صاحب عقارات أو طالب ملذات ،
كان وما زال ،متقشفا في أكله ،بسيطا في لباسه ومتواضعا في كِنه .
أحب فلسطين حتى (تزوجها) ، ولكن…،
عندما قيل له أن الزواج الذي هو نصف الدين هو الاقتران بامرأة ،
اقترن بسها ،ابنة (زوجته الأولى) فلسطين ،
وعندما فعلها قيل فكاهة ( سَها أبو عمار فتزوج سُها) .
مارس الكفاح المسلح حتى خاله البعض لا يعرف السياسة ،
ومارس السياسة حتى خاله البعض لا يؤمن بالكفاح المسلح ،
مالأ اليسار حتى اتهموه بالتطرف ،
مالأ اليمين حتى اتهموه باليمينية والرجعية ،
فلم يعجب لا اليمين ولا اليسار ، وكان كلاهما ،
فيما لم يعد اليمين يمينا ولم يعد اليسار يسارا.
وحتى عندما رفع غصن الزيتون في يد والبندقية في يد ،
لم يعجب دعاة الثورية الذين أرادوها بندقية فقط ،
ولم يعجب الرجعيين الذين أرادوه غصن زيتون فقط …
ولان شعبه مجزأ ومشتت بين عدة دول هي خليط من النظم والسياسات ،
فأرادوه أن يكون على هوى كل نظام وسياسة .
كانت فلسطين هي هدفه وفلسطين عذابه وفلسطين أمله ،
كان يرفض الاعتراف بالهزيمة وكان ينهض من وسط الدمار
كالعنقاء كان لأنه يعرف أن هزيمته هزيمة شعب،
وان يأسه هو تيئيس شعب ،
وشعب مثل الشعب الفلسطيني لا يجب أن ينهزم أو ييأس ،
وليس من شيمته الهزيمة أو اليأس .
تساقط رفاقه من حوله الواحد تلو الآخر وبقي هو في الميدان ،
حتى قال البعض أنهم أبقوه ليوقع …!،
ولم يفهموا أنهم إن أبقوه فإنما لما هو اشد من الموت
ليوقع على ما هو دون تحرير كامل فلسطين .
في أبو عمار احتار الأقربون و الأبعدون ، الأصدقاء والأعداء ،
احتاروا فيه وقت الحرب واحتاروا فيه وقت السلم ،
عندما فجر الثورة وحمل البندقية قالوا إرهابيا ومغامرا !
وعندما حمل غصن الزيتون قالوا إنه تخلى عن القضية ..!،
حاول أن يصادق الجميع فعاداه كثيرون ،
كانوا يقبلونه في الجهر ويطعنونه في السر ،
تغاضى عن استعلاء الأسد ولذاعة لسان خدام وطلاس ،
عانى من (ثورية ) القذافي و أربكته صدمات صدام،
انحنى وقبل راس الحسن ورأس الحسين ومن اعتلا سدة الحكم من بعدهما،
من اجل فلسطين عانق الصغير والكبير حتى سموه ممازحة (البويس ) ،
ومن اجل فلسطين أدى التحية العسكرية للجندي والجنرال،
ولأن كل زعيم هو مفتاح الدخول إلى الشعب فقد حاول مهادنة الجميع ،
كان يعرف حقيقة نوايا الحكام العرب ولكنه كان بحاجة إلى أموالهم والى شعبهم .
قيل انه زعيم متسلط فقال بيننا وبينكم الشعب فلم يرض عنه الشعب بديلا ،
قيل انه داهية وخبيث فقال إن العالم اليوم غابة ،
وان لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب وان لم تكن ثعلبا اصطادتك الكلاب .
قيل انه ركع بعد شموخ وتنازل بعد تصلب ،
وعندما أطاحت عاصفة الصحراء بورقة التوت ،وانكشف …،
المنبطحون والمتاجرون بالقضية والحاقدون والموتورون ،
اُعتبر ركوعه شموخا وتنازله حكمة….
كان (الإرهابي ) رقم واحد فأصبح حامل جائزة السلام الأولى !
كانت أجهزة المخابرات الصهيونية والأمريكية تطارده في كل مكان ،
فأصبحت حامية حماه ومؤمنة استمرارية سلطته،
ليس حبا فيه بطبيعة الحال ولكن لأنهم اعتقدوا أنهم طوعوه ،
و(الوجه الذي تعرفه أحسن من الوجه الذي لا تعرفه ) ،
وعاد إلى الوطن وهو يعلم انه لم يعد عودة المنتصر،
ولكنه عاد عندما سُدت أمامه كل أبواب النضال من ارض العروبة والإسلام ،
عاد عندما أصبح دم الفلسطيني مباحا ومطلوبا بعد حرب الخليج ،
التي هي حرب التآمر الصهيوني الغربي والجهل العربي ،
وكأنها حرب ما وُجِدَت وخُطط لها إلا لتصفية القضية الفلسطينية ولإذلال أمة يعرب.
وفي أرض الوطن المحتل …أرادوه أن يكون رئيس بلدية أو شيخ عرب ،
وأراد هو وأراد شعبه أن يكون الحكم الذاتي مرحلة إعداد للدولة المنشودة،
وفي غزة أحاط به الجنرالات والمستشارون والمفاوضون والناطقون الرسميون ،
وتساءل البعض؟من يصنع القرار ،ومن يصدر القرار ومن ينفذ القرار ؟.
وفي الانتفاضة ركب موجتها وكأنه نسي نصوص اوسلو ،وما نساها...
وكأن ألأعداء كانوا يخططوا لما جري فانقضوا عليه وعلى اوسلو...
وحاصروه ،واعتقدوا أنهم بحصاره يحاصرون القضية ...
ولأن القضية أكبر من أي شخص حتى لو كان أبو عمار،
فحوصرت سلطة أبو عمار ولم يحاصر الشعب ..
بالرغم من الحصار فـ (يا جبل ما يهزك ريح) ...
ولكن الموت يهز الإنسان وأبو عمار إنسان.
قال ملك فرنسا (فليأت من بعدي الطوفان) ...
وذهب ولم يأت الطوفان من بعده وبقيت فرنسا
وأبو عمار عاش كملك للشعب له سطوة ملك وتفرد سلطة ،
ولكنه حرم نفسه من جاه السلطة ونعيمها ....
ونتمنى أن لا يكون الطوفان من بعده ....
ليس ثقة بالنخبة السياسية ولكن ثقة بالشعب.

مع انه لم يؤم المصلين الفلسطينيين في الأقصى في القدس عاصمة دولة فلسطين ، ولم ير شبلا ولا طفلة ترفع علم فلسطين فوق أسوار القدس ،فأن شعبه يعذره ، ولن يلمه كثيرون ،وإن قرر أن يستريح من هموم السياسة أو يريحه الله من همومها فستبقى ذكراه طيبة عند الشعب ،ليس لأنه بدون أخطاء بل لأنه لم يرفع الراية البيضاء، لا شك انه رمز القضية ولكنه ليس القضية ، وعمر القضية غير مرهون بعمره ، أطال الله في عمره وفي عمر القضية.